الاصداء

حكاية مؤلف وكتاب

كنا خمسة في الحديقة الغناء التي تحيط بفندق «مينا هوس» عند سفح الهرم الكبير ، والوقت وقت الغسق والحديث ينتقل من الادب الى الفلسفة الى السياسة . وكان احدنا اميركيًّا طويل القامة عريض المنكبين قيل لنا انهُ روائيٌّ مشهور ، يجني من مؤلفاتهِ نحو عشرة آلاف جنيه في السنة . وكانت ترافقهُ زوجتهُ ، وهي ربعة نحيفة القوام ، في عينيها أَلقة الذكاء والاحساس المرهف ، ويبدو على وجهها انها من اصل الماني . وكان ثالثنا انكليزيًّا تقلّب في الاعمال الصحافية والادبية في بلادهِ حتى استقرَّ اخيراً في منصب الناقد الادبي الاول لجريدة « الترانسكربت » وهو من اكبر المناصب الادبية مقاماً في بلادهِ . اما الرابع فكان صحافيًّا مصريًّا درس في فرنسا وبريطانيا وحذق لغتي البلادين ، واكبَّ على الفلسفة في السوربون ، ولكنَّ السياسة زجّتهُ في معتركها فاتحمهُ اقتحام فارس مغوار

جلسنا نتجاذب اطراف الحديث حول مائدة الشاي . فانتقلنا من حديث الجوّ والآثار القديمة ، الى حديث نزع السلاح وعصبة الامم واكتساح القومية الجامحة لمعظم بلدان اوربا . ثم تطرقنا الى سياسات الدول الغربية في الشرق الادنى ، في مصر وسوريا والعراق . وما لبثنا ان سررنا جميعاً بخروجنا من معمعة السياسة الى حلبة الادب ، واذا الحديث يدور ، ونحن لا ندري على مقام «الحظ» في ميدان التأليف . فذكر بعضنا اسماء نفر من المؤلفين ، ليس لمؤلفاتهم قيمة من الناحية الادبية رغم ما اصابوهُ من صيت ذائع وثروة طائلة . وذكر البعض الآخر اسماء نفر آخرين من المؤلفين اوفوا على الغاية من إجادة التأليف ولكن مؤلفاتهم لا يقرؤها الاَّ قليل من المثقفين

وكان الاميركي صامتاً يصغي ، فاذا هو عند هذا الحدّ ، قد استوى في مكانهِ وقال بلهجة التقطع « انا لا اصدق ان للحظ ايَّ أثر في نجاح المؤلف »

فعلَت الدهشة وجوه الصحب لهذا التصريح الحاسم ، ولحظ هو ذلك ، فاذا التصريح البسيط ينقلب خطبة بليغة تدور على الاجتهاد والسعي وشق المرائر وعدم الاعتراف بالخيبة وختمها ، ويدهُ في صدرتهِ كأنهُ نبوليون التأليف بقوله « ان كلة الحظ لا توجد الاَّ في معجم الكسالى »

فنظر اليه الانكليزي ، نظرة هدوء وطمأنينة وقال : لا اظنك تصدق كلَّ ما تقول . فاذا شئت سردتُ لك عشرات الحوادث كلٌّ واحدة منها تدحض حكمك المطلق فقلنا معاً : نكتفي بواحدة منها فوقف قليلاً ريثما اشعل لفافتهُ . ثم قال : اذا شئتم — رويت قصة وقعت وهي غريبة في بابها

الا انها تمثل نصيب « الحظ » في الحياة رجحر خاص ، اكثر من اية قصة تناهى الي خبرها قرأ في هذه الايام عن قصص اصابت رواجاً عظيماً فطبعت منها مئات الالوف من النسخ ، وحكايتي تدور على احداها

كان في لندن دار للنشر تعرف بدار « ويد وروجر » قوامها جون روجر وابنهُ ولِم ، لان اسرة ويد كانت قد انقرضت قبل حوادث حكايتنا بنحو عشرين سنة . وكان روجر وابنهُ يفتخران بانهما لا ينشران من الكتب الا ما كان في رأيهما من الادب العالي . على انهما كان يجهلان اساليب النشر الحديثة كاعلان مطبوعاتهما ، اعلاناً يشوّق اكثر مما يصدُق ، وحثّ النقّاد على اقتنائها(١) لكي يسير ذكرها في الناس . وكان الاب روجر لا يستطيع ان يمسك عن طبع كتاب يعجب بهِ ، غير حاسب لرواجه حساباً . وكان علاوة على ذلك يدهش ويتململ من نوع الكتب التي تخرجها المطابع ويكثر اقبال الجمهور عليها . وكانت هذه الدار قد اصابت مكانة في ميدان النشر ونجاحاً ماليًّا . فاصبحت في العقد الاول من القرن العشرين ولا قبل لها بمجاراة بيوت النشر الجديدة فقلّ عليها الاقبال ، وهدّدها الافلاس . فعرض على صاحبيها رجل يدعى بَجُتْ — هذا اسم مستعار لهُ — ان يشتري الدار محتفظاً باسمها ، وبالشاب ولِم روجر وكيلاً لهُ وقارئاً(٢)

وما كاد بَجُت يتسلّم مقاليد الامور ، حتى نقل الدار من شارع زري الى شارع لخم ، واخذ ينشر من الروايات ما يقبل عليهِ الجمهور ، وكان ذا قدرة عجيبة على تبين تيارات الرأي الادبي العام ، من دون ان يفهم او يقيم للادب وزناً صحيحاً . وساعدهُ في عمله ، صيت الدار التي اشتراها ، فاقبلت الدنيا عليهِ ايمّا إقبال

وبقي روجر الاب متصلاً اتصالاً اسميًّا بالدار الى ان ادركتهُ الوفاة . وكان ابنهُ ولِم وكيلاً لا حقّ لهُ في الادارة ، وقارئاً لا يقام لآرائهِ وزن ما . ذلك ان بَجُت كان يخشى ان يعتمد على آراء الفتى الادبية ، خشية ان يقتفي خطوات والدهِ وينصرف عن الخطة الجديدة التي رسمها

وفي سنة ١٩١٠ ذهب بَجُت الى نيويورك ، وبقي ولِم في منصب المدير ، خلال غيبتهِ

وفي احد الايام اذ كان جالساً في مكتبهِ ، دخل عليهِ شاب اصفر الوجه غائر العينين اقنى الانف يتأبط اصول كتاب ، فارتمى على كرسيّ هناك وقذف باصول الكتاب على المائدة

قال : انني لا استطيع ان امنّي نفسي بشرف قبولك هذا الكتاب فهو رواية لا تشبه الروايات السيارة ولا تعالج موضوعاً يستفزّ الشعور الضعيف بل تدور على فكرة قلما يشار اليها في المجتمعات الراقية . وقد شرفني كل ناشر في لندن برفضها على اني أرغب في اطلاعك عليها ان لم يكن لديك مانع

وتبين ولِم في الشاب شيئاً غامضاً استرعى نظره ورأى وما كذبهُ فؤاده ان هذا الجفاء

(١) الاقتنان مدح شيء وذمه اي المحاسن والاضداد

(٢) القارىء في دور النشر الاعجمية رجل يقرأ اصول الروايات التي تعرض للنشر قبل قبولها او رفضها

وهذا الاستخفاف كانا حجاباً لنفس دقيقة الحس . واحس بدافع قوي يدفعه الى الظهور بمظهر الصداقة لهذا الشاب فاتر العينين . فجعلا يتحدثان . وكلما تقدم الحديث زال الجفاء في كلام الروائي . ثم ما لبث ان صارح الناشر ، بأنهُ لا يملك شروى نقير ، وان روايتهُ « الاصداء » . — وهذا ليس اسمها الحقيقي — كانت مناط امله الاخير . ثم قال ثق ان الرواية ممتازة . فقد بذلت فيها نفسي . واني لواثق من جودتها ، ثقة الملاّح بيبت الابرة (البوصلة) . ولكنني لا آمل في الحصول على مبلغ كبير لقاء نشرها . فليس فيها مواربة ولا تملق . بل انها ترسم الحياة كما هي ، لا كما ندّعيها او نتظاهر بها . وانك لتقلدني منة اذا قرأتها ، واسرعت في ردّك عليّ

فوعد وليم بالشروع في قراءتها حالاً

قال : ليس لديّ ما يشغلني الآن . فاذا جئت غداً بعيد الظهر فقد استطيع ان افضي اليك بقراري في شأنها

وكأن شيئاً في الفتى الروائي اثار كوامن النفس في وليم الاديب ، فسرعان ما اقبل على الرواية يقرؤها . ولم يكد يقرأ بضع صفحات حتى ادرك بميزان ادبه الحسّاس انهُ قد فاز بلقية . فلما انجز قراءتها في الهزيع الاخير من الليل، اقتنع بأنهُ قد عثر على آية من الآيات . كان اسلوبها قويّاً متزناً ألمعيّاً ، وكانت من سطرها الاول الى الاخير، تنبض نبضاً شعريّاً متدفقاً من نفس سداها الاخلاص ولحمتها دقة الاحساس . ولكنها من حيث الشركات لا تتفق هي وسُبُل ذلك العهد . لانها تعالج موضوعات نفسية بعيدة عن نفوس الجماهير ، بعد مبادىء النسبية او الراديو حينئذٍ عن افهامهم . كان الجمهور لا يزال متأثراً بتعاليم العصر الفكتوري . وقلّ منهم من سمع باسم فرويد والتحليل النفسي . وكانت الحياة تميل الى النزعة الخيالية ، لان الحرب ، التي غيرت النظم الاجتماعية وازاحت لثام الاوهام الشعرية عن حقائق الحياة ، كانت ما تزال في طيّات الغيب . ولو نشرت رواية « الاصداء » في سنة ١٩١٠ لاستقبلت استقبال فتاة تسير حينئذٍ في شوارع لندن بجونلة الشعر قصيرة الحلّة الى حدّ الركبتين وفي فمها لفافة من التبغ

احسّ وليم عند ما اتمّ قراءة الرواية ، انهُ قلب في القفر صخراً فعثر على ماسة . ثم تذكر رئيسهُ بجت تقيّاً ذلك البريق في عينيه . ايقبل بجت ان ينشر الرواية ؟ ايجرؤ هو على المغامرة بقبولها للنشر ؟ ولو كانت المسألة رهن قراره لما تردّد . ولكنهُ ادرك ان بجت لن يقبلها . وبجت عائد من اميركا بعد بضعة اسابيع . وكان وليم لا يزال متحيّراً في ما يفعل ، لما دخل عليه دان كارتر — لندلّ على المؤلف بهذا الاسم — فما اقبل عليه ، احسّ وليم ، برابطة عطف خفية تربطه بهذا الفتى ، فأعرب عن اعجابه العظيم بروايته العجيبة، ثم بسط لهُ الحالة كما هي ، والبواعث التي تحول دون اتخاذه قراراً حاسماً في موضوعها . وختم بقوله : اذا اردت ان تصبر حتى يعود المستر بجت من نيويورك ، فقد استطيع ان أقنعهُ . ولكنني لا اريد ان يؤخذ قولي هذا على انهُ تعهّد به . . . .

فعبس وجه الفتى بعدما استبشر عندما اعرب لهُ وليم عن اعجابهِ بروايتهِ وقال :

لما كنت قد صارحتني عوقتك اودُّ ان اصارحك انا كذلك بحالتي . فانني لست املك فلساً واحداً . ولا استطيع بوجهٍ من الوجوه ان اصبر بضعة اسابيع . بل لا استطيع ان اصبر بضعة ايام. لم اتناول بعد مقابلتك امس الا فنجاناً من القهوة ، ولا اتذكر آخر مرة اكلت فيها حتى الشبع .

وضحك ضحكة استهتار رنَّ صداها في الغرفة ثم قال : وارجو ألاَّ تحسب انني احاول التأثير في مشاعرك بقولي هذا . انما ابسط لك لماذا لا استطيع الصبر بضعة اسابيع . وما يزال امامي دار او داران للنشر !

انقبضت نفس وليم ، وامتدت يدهُ الى جيبهِ من تلقاء نفسها وهو يقول « اذا سمحت بقرض صغير . . . » ولكن الفتى قاطعهُ مخاطباً : انني لا استجدي . انا لا اطلب احساناً . ثم ضرب بقبضة يدهِ على اصول الكتاب وقال أتظنني مختلاً لا ادرك قيمة كتابي ؟ ان في هذا الكتاب ثروة لمن يجرؤ على نشره

فقال وليم : ولكنني بسطت لك عذري . ولو ان كتابك كان رواية عاديةً لكان . . . .

فوقف الفتى ، وتأبط اصول كتابهِ واتجه الى الباب قائلاً : « انكم معشر الناشرين تثيرون غضبي وشفقتي في آن . أنتم اناسٌ لا تملكون ذرَّة من الخيال . اعرض عليكم كتاباً ذا قيمة خاصة ، ولكنهُ يختلف عن الروايات العادية التي تنشرونها ، فلا تجرؤون على نشره ! انكم لأجبن من الارانب »

وما كاد يصل الى الباب حتى استوقفه وليم قائلاً :

« قِف . أقبلُ ان أخاطرَ حتى ولو طردتُ لاجلها . انني اؤمن بهذا الكتاب . انا اعلم انهُ آية من الآيات . ولا استطيع ان افرّط فيها »

فالتفت اليهِ دان كارتر وهو لا يكاد يصدق . وكأنَّ وليم كان يناجي نفسه ... لا بدَّ من المغامرة وقد تصيب هذه الرواية نجاحاً عظيماً ... ثم جلسا يتحدثان في شروط الاتفاق . عندئذٍ انبأ المؤلف صاحبهُ ان اسمهُ الحقيقي لبو فرجوسن . فلما عرض عليهِ نصيباً من الربح يوزع بعد طبع الكتاب وبيعه فرغ صبرهُ وقال : « الم اقل لك انني احتاج الى المبلغ نقداً . ألا تستطيع ان تدفع ثمن الرواية فوراً » . وبعد تردد كثير عرض وليم على فرجوسن خمسين جنيهاً ثمناً مطلقاً للرواية وحقوق طبعها جميعاً . وقال انا اعلم ان المبلغ يسير ولكنني لا اجرؤ ان اعرض عليك مبلغاً اكبر من هذا

فقال فرجوسن « ولو كنت مكاني لادركت ان مبلغ الخمسين جنيهاً هبة سماوية »

وكذلك تناول وليم دفتر التحويلات المالية وشرع يكتب التحويل بعد توقيع العقد الذي نقلت بموجبه جميع الحقوق في رواية « الاصداء » من مؤلفها الى دار « ريد وروجر » بلا قيد ولا شرط

وما كاد المؤلف يخرج حتى استسلم وليم للهم . فانه يحسب نفسهُ رجلاً احمق لانهُ قامر هذه المغامرة وآناً آخر يهنيء نفسه لانهُ كشف عن آية من آيات الفن الروائي فيدركه الخجل لمبلغ اليسير

الذي بذله في ابتياعها . ولكنه كان يطمئن نفسه بأنه اذا نشر الكتاب وأصاب رواجاً فانه يكون مقدمة لبلوغ المؤلف ما يتمنى في عالم الادب

وكذلك لبث وليم ، والآراء تتنازعه ، ينتظر عودة بجُت من نيويورك . ولما عاد هذا حاملاً في جعبته الروايات مضمونة الرواج ، وقرأ « الاصداء » تحققت مخاوف وليم . فان بجت ارغى وأزبد ورمى بأصول الكتاب ، جاحظ العينين منتفخ الاوداج ، محقراً وليم بما تتره عليه من صفات الحمق والتهور . ووليم صابر يتوقع سكون العاصفة يحاول هنا وهناك ان يقول كلمة دفاعاً عن الرواية ومؤلفها . فلما عرض بجت بوالد وليم جن جنون الشاب وأخذ قبعته وعصاه ومضى

هنا توقف الانكليزي هنيهة عن سرد قصته ، وحدّق في الفضاء البنفسجي يحيط بالهرم الكبير بعيد الغروب ثم انتبه الى ان الصحب ينتظر نهاية القصة فربي يعقب اناته واستأنف حديثه فقال :

كان ذلك سنة ١٩١٠ وانقضت اثنتا عشرة سنة ظلّت فيها رواية « الاصداء » مطوية في قمطر يكسوها الغبار . واستحالت نفسية الجماهير في بريطانيا في خلال هذه السنين . كانت السنوات الاربع الاولى منها سنوات رخاء واقبال وسلام ، وكان الناس في خلالها يأبون كل حافز للتفكير ، ويعرضون عن كلّ من يقول حقيقة تمزق عن عيونهم ذلك الغشاء الوردي . ثم تلتها سنوات الحرب ، وهي سنوات حافلة بالآلام والفظائع والعنف ، فتمزق الحجاب عن كل عمل مصطنع ، او شعور مقلد ، وتعرت نفوس البرايا امام شبح الحرب . وجاءت بعدها اربع سنوات من الفوضى ، فانقلبت النظم الاجتماعية وتغيرت الآراء والآداب ، وقام جيل من الناس لا صبر له على المغالطة والمواربة يريد الحقيقة غير مقنعة ويرفض ان يسير في طريق الحياة وعلى أبصاره غشاوة

وكان أثر هذا الانقلاب في ادب الرواية عظيماً فبارت الروايات التي كانت رائجة قبل الحرب ونشأت طائفة جديدة من الكتّاب تعالج شؤون الحياة معالجة صريحة ، وكان بجُت كما قلت رجلاً يعرف مهابّ الرياح في ميدان النشر ، فكان ينشر الكتب التي تشغل موضوعاتها اذهان الناس ، سواء أكانت علماً ام تاريخاً ام سياسة ام ادباً على آخر طراز . وكذلك لما اقبلت سنة ١٩٢٢ كانت داره في مقدمة دور النشر في لندن

ووقعت جناية ما اروعها في لندن حينئذٍ . ذلك ان سيدة جميلة من كرائم البيوت اغرت رجلاً بقتل زوجها ، لكي تستطيع ان تفرّ مع عشيق لها ، في عروقه آثار واضحة من دماء الزنوج . وكانت محاكمتها من اشهر المحاكمات الغرامية في العصر الحديث . رسائل الغرام التي تليت في المحكمة ، والحوادث الغريبة التي كشف اللثام عنها ، والعوامل النفسانية التي حلّلت وبسطت على مسمع من الناس ، ثم نشرت جميع تفصيلاتها في بعض الصحف ، كل ذلك كان توطئة لاعظم نجاح ادبي احرزته رواية بعد الحرب

كانت شفتا الانكليزي وهو يقول هذه الكلمات تنقبض ثم تنبسط . وكانت غنة صوته تنقلب

تقلباً يسترعي الانتباه ، كأنهُ كان ينبش من قلبه ذكريات طال عليها الامد ثم قال :—

وطالما فكرت كيف خطر على بال بجت ، ذكر تلك الرواية المنسية ، المطوية في قمطر قديم تعلوها طبقة من الغبار ، وانني لاستطيع ان اتصوره ، وقد خطرت بباله ، كيف راح يفتح القماطر ويقلبها ، باحثاً عن اصول الرواية التي اشترتها داره رغماً عنهُ بخمسين جنيهاً قبل اثنتي عشرة سنة . بل استطيع ان اتصوره وقد عثر بالاصول وجلس يقرؤها ، واجداً فيها من تحليل النفوس ما يشبه كل الشبه ، العجائب التي اسفرت عنها المحاكمة في تلك الجريمة . عند ذلك لا بدَّ ان يكون قد قفز فرحاً لان هذا الكتاب ملكه الخاص بلا قيد او شرط . فأسرع في طبع الرواية .

وكانت النتيجة فوق ما توقع . ذلك ان موجة الاقبال عليها ، ظلت ترتفع اسبوعاً بعد اسبوع حتى اصبح الطابعون عاجزين عن مجاراة ما يطلبهُ الجمهور منها . وكانت مثاراً لمناقشة حادة بين النقاد على صفحات الجرائد وترجمت الى عشرات اللغات . ثم حولت الى رواية مسرحية ومثلت فالشريط سيمي

ولما اراد بجتُ ان يخرج روايات اخرى من قلم هذا المؤلف بحث عنهُ فلم يجده . فظن ان الرجل لا بدَّ ان يرى كتابهُ ، وقد حاز هذا الاقبال فيجيء من تلقاء نفسه طالباً نصيباً من الربح . ولكن المؤلف لم يقبل . فبحث عن اسمه الحقيقي ، فعثر عليهِ بعد تفتيش دقيق على كعب التحويل الذي اعطيهِ قبل اثنتي عشرة سنة فاذا هو « ليو فرجوسن » . فذهب الى مكتب من الجواسيس وطلب اليهم ان يبحثوا لهُ عن هذا الرجل . . . . .

هنا توقف الانكليزي عن الحديث . وكلنا شوق الى معرفة النتيجة . فقلنا معاً اوهل وجدوه ؟

قال : الجواب بالايجاب والنفي معاً . بعد انقضاء بضعة اسابيع ابلغ مكتب الجواسيس صاحبنا بجتُ ان رجلاً يدعى ليو فرجوسن توفي قبل ثلاثة اشهر في ملجإٍ من ملاجئ المعوزين ، وكان سبب موته داء السل وقد ثقل الجوع وطأتهُ

وتوقف ثانية والتفت الى صديقنا الاميركي ، وقال : ماذا تقول في هذه الحادثة ، عن علاقة الجدارة بالنجاح . الرجل الذي وضع اروج كتاب عرف بعد الحرب ، مات في ملجإٍ . والرجل الآخر الذي عرف قيمة الكتاب طرد من عمله . والرجل ... بجتُ ... أثرى منهُ . كيف تعلل كل هذا !؟

فتململ الاميركي في كرسيهِ ورفع يديهِ ، يشير بهما اشارة مبهمة ، وقال متردداً « و . . ول . . لكن . . كيف تعلم ان الرجل الذي مات مسلولاً في الملجأ كان مؤلف الاصداء »

فهزَّ الانكليزي كتفيهِ وقال اولاً لان الاسم « ليو فرجوسن » ليس اسماً مألوفاً ، ثم انهُ وجدت صورة في مخلفات الرجل الذي مات في الملجأ ، وانني لا استطيع ان اعرف تينك العينين اين رأيتهما

فقلنا جميعاً انت . . . انت . . . ؟

فقال . . : نعم . لقد اتفق انني كنت في هذه الحادثة . . . احد ابطالها الثلاثة — وليم !

[مقتبسة]